



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 28/06/2024

تاريخ القبول: 2024-11-15

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

دور حروف العطف في البرهان على إعجاز تراكيب القرآن العطف من الوصف إلى الكشف

The role of conjunctions in proving the miraculous nature of the structure of the Quran is to transition from description to revelation

د / طيبي فتيحة¹

¹ جامعة زيان عاشور الجلفة (الجزائر)، taibifatiha81@gmail.com

الملخص: إن المتصفح لكتب المفسرين قديما وحديثا يجدها حافلة بمختلف القضايا والظواهر اللغوية والبلاغية الجديرة بالدراسة والبحث والملحة على زيادة التعمق في كتاب الله الذي كان ولا يزال وسوف يبقى في قمة الإعجاز الذي يفوق كل إنجاز. وهدف هذه الدراسة تسليط الضوء قدر المستطاع على أسلوب العطف وفهمه في إطار يتصل بلغة القرآن الكريم، لما لهذه الحروف من دور كبير في البرهان على إعجاز تراكيب القرآن. **الكلمات المفتاحية:** حروف العطف، تراكيب القرآن، الوصف والكشف، الفصل والوصل، التعاقب والتناوب

ABSTRACT

The browser of the interpreters' books, both ancient and modern, finds them filled with various linguistic and rhetorical issues and phenomena worthy of study and research, and urgent to deepen in the book of Allah, which was, still is, and will remain at the peak of the miracle that surpasses every achievement .

The aim of this study is to shed light as much as possible on the style of coordination and its understanding within the framework related to the language of the Holy Quran, due to the significant role these letters play in proving the miracle of the Quranic structures.

Keywords: Conjunctions, Quranic structures, description and revelation, separation and connection, sequence and alternation.

1. مقدمة:

موضوع العطف من المواضيع التي حظيت بعناية علوم اللغة نحواً وبلاغة وتفسيراً، هذه العناية التي أسرها البيان القرآني فراحت تحاول أن تبين الخصائص الأسلوبية لهذا النمط من التعبير الذي تناوله القدامى والمحدثون وخاضوا فيه وتضاربت آراؤهم في كثير من الأحيان فيما يخص مسائل تتعلق بهذه الحروف المسماة بـ: حروف العطف، لكن على الرغم من اختلاف وجهات النظر بين هؤلاء وأولئك إلا أننا نجد أن جهودهم التي بذلوها تكمل بعضها بعضاً إذ الهدف منها واحد وهو محاولة الكشف عن أسرار البيان القرآني من خلال حروف العطف.

إن الإعجاز البياني في القرآن الكريم هو أقوى وجوه الإعجاز وهو المعتمد عليه في كتب المفسرين منذ القدم، فعلماء البيان صوتوا بالإجماع على أن القرآن الكريم معجز بنظمه، وفكرة النظم هذه كانت موجودة في بيئات مختلفة متناثرة في كتب العلماء الأوائل ثم نظرت على يد الجرجاني ثم ازدادت اتساعاً وعمقاً مع السكاكي والقزويني والتفتازاني والسبكي وغيرهم وفق مقتضى عصرهم. كما لا ننسى جهود علماء العصر الحديث الذين واصلوا مسيرة الجرجاني في نظرية النظم إذ لم يتجمدوا بما قدم الأوائل.

نظرية النظم هذه التي سيطرت طويلاً على الفكر البلاغي ركزت جل اهتماماتها على مباحث "الفصل والوصل" التي اعتنى فيها الجرجاني ببلاغة عطف الجمل على حساب عطف المفردات التي أهملها لأنه رأى فيها انعدام القدرة الإبداعية واهتم بالتراكيب والجمل التي تتفاضل فيها المواهب وتختلف فيها القدرات، وقبل الجرجاني ألفتينا سيبويه (148هـ-180هـ) قد تحدث عن هذه الصيغة فأشار إلى أثر نظم الكلمات في المعنى الذي هو قوام النحو العربي وهنا يظهر ذلك التكامل بين البلاغة والنحو، ببلاغة التعبير تترتب عن المعنى الرفيع الذي بدوره يترتب عن البراعة في التركيب النحوي وكواحد من تلك الوجوه التي تؤدي إلى النظم تلك الحروف التي تربط بين المفردات والجمل في الكلام البليغ الذي يجمع بين الإعجاز القرآني من زاوية وعبقورية اللغة في حروفها من زاوية أخرى.

إن أساليب العطف أحاطت بالفكرتين "النظم-الوصل والفصل" وتجاوزتهما فالعطف تابع يتبع بواسطة هي أحد حروف العطف المعروفة.

يحسن بنا قبل الخوض في موضوع العطف والتعمق في قضاياها أن نبدأ بتعريف العطف لغة واصطلاحاً. ورد في الصباح في مادة "عطف" (الجوهري، 1979): عطف أي ملت، وعطفت العود فانعطف، وعطفت الوسادة ثنيته، وعطفت عليه أي أشفقت..... والمعطف بالكسر الرداء..... ومنعطف الوادي: منعرجه ومنحناه. تدل أطراف مادة عطف لدى اللغويين إما على الميل إلى الشيء أو الانصراف عنه حسب الخافض الذي تتعدى به (الشرقاوي، د ت، صفحة 48)

أما اصطلاحاً: "العطف تابع مقصود بالنسبة مع متبوعه يتوسط بينه وبين متبوعه أحد الحروف العشرة" (رضي الدين الاستبدادي، 1998، صفحة 354).

وعرف حيدرة اليمني العطف فقال: "العطف رد آخر الكلام على أوله حتى يصير إعراب الثاني كإعراب الأول إن رفعاً فرفع وإن نصباً فنصب وإن جراً فجر، وإن جزماً فجزم" (حيدرة اليمني، 2004، صفحة 184).

إذا فكرة العطف عند القدامى تتصل برد التابع على المتبوع والتابع هنا المعطوف والمتبوع المعطوف عليه كقولنا:
خرج أسعد وسعيد فلفظ سعيد هنا يميل عن الطريق المتوقع، فينعطف على ما قبله في معنى الخروج فرسم الحركة الذهنية
في هذا المثال يسير إلى الأمام ثم يرجع إلى الخلف ثم يعود إلى السير نحو الأمام، وهذا ما لا نجده في قولنا: خرج أسعد
ودخل سعيد إذ الحركة الذهنية رسمها في خط مستقيم يسير نحو الأمام، وهنا لا يظهر معنى الانعطاف عكس العبارة
الأولى التي تحمل معنى الانعطاف (الشرقاوي، د ت، صفحة 52).

وأطلق البصريون على هذا النمط من التعبير اسم أسلوب العطف وسموا حروفه بحروف العطف أما الكوفيون
فسموا بحروف النسق فكانت تسمية البصريين انطلاقا من المعنى بينما تسمية الكوفيين انطلاقا من المتابعة الإعرابية بين
التابع والمتبوع.

ومن بين التسميات التي أطلقها البصريون على هذا النمط من التعبير اللغوي: المشاركة والموالة والعطف ومن
بين التسميات الكوفية لهذه الصيغة التعبيرية: الرد والعطف والنسق (عيسى شحاتة، 2001، صفحة 282).

ويتفق هؤلاء وغيرهم على أن العطف يختلف عن باقي التوابع الأخرى من حيث إنها تتبع من غير واسطة،
والعطف يتبع بواسطة هذه الواسطة هي حرف من حروف العطف المعروفة.
والواو أصل حروف العطف وأم هذا الباب.

لأن الواو تدل على الاشتراك فقط، أما غيرها من الحروف فبالإضافة إلى الاشتراك تدل على معنى زائد وبما أن
هذه الحروف تدل على معنى زائد ليس في الواو صارت الواو بمنزلة الشيء المفرد وبقية الحروف بمنزلة المركب والمفرد أصل
للمركب (ابن الأنباري، 1995، صفحة 267).

أما عن عدد حروف العطف فلا بد من الإشارة إلى الاختلاف الذي وقع بين العلماء فابن الأنباري قال إنها
تسعة (ابن الأنباري، 1995، صفحة 267) وحيدرة اليميني قال: إنها عشر أدوات (حيدرة اليميني، 2004، صفحة
185). والزجاجي قال: إنها أحد عشر حرف (الزجاجي، 1996، صفحة 17).

احتلت مباحث العطف وأساليبه بصفة عامة منزلة هامة في الدراسات القرآنية منذ أن ظهرت لأول مرة إذا
اعتنى بها البلغاء والنحاة والمفسرون على حد سواء ومرجع هذا الاهتمام وهذه العناية الإحساس بالحاجة الماسة إلى تفهم
الأساليب التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم.

لذا راح الباحثون والدارسون في الذكر الحكيم يتفهمون وجوه الحسن والجمال في التركيب القرآني وينظرون إليها
من زوايا متعددة خاصة وأن لكثير من تلك الأساليب معان، قد لا يدل عليها ظاهر اللفظ فإذا كان القرآن معجزا
بنظمه كما أجمع أئمة البيان فإن "العرى الممسكة بنسيج الكلام تلعب دورا كبيرا في استقامة النظم وتلاحم أجزائه، ومن
ثم كانت الروابط التي تصل بين مفردات الكلام وجمله والمنعوتة بحروف العطف تمثل أحد الوجوه التي تلثقي فيها عبقرية
اللغة وإعجاز القرآن فعبقرية اللغة تظهر جلية في الربط بين أقدار الحروف ودلالاتها" (الخضري، 2007، صفحة 06)

وقد جعلوا لكل حرف من حروف العطف معنى خاصا به ولو تداولت هذه الحروف على جملة واحدة
لاختلفت معاني هذه الجملة من حرف لآخر وفي هذا الاختلاف في المعاني تظهر قيمة حروف العطف.

ومن جهة أخرى لو كانت هذه الحروف تحمل نفس المعنى لاحتفى الخالق بذكر حرف واحد في القرآن الكريم، بل نجد كل حروف العطف المذكورة في الذكر الحكيم وكل حرف يحمل معنى على حسب السياق الذي ورد فيه والدليل على ذلك قوله تعالى: (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) [سورة آل عمران: 137، سورة النحل: 36] وقوله: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) [سورة الأنعام: 11]

فنظم الآيتين واحد لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى والفرق بينهما الرابط أو حرف العطف فتارة نجد "الفاء" وتارة أخرى نجد "ثم" وكثيرا ما نجد هذه الظاهرة في مواقع متفرقة من القرآن الكريم ومن المستحيل أن يكون هذا الاختلاف في نظم القرآن الكريم من قبيل الصدفة أو العبث بهذه الحروف بل هي غاية أرادها منزل هذا القرآن المجيد، فوضع هذين الحرفين في موضعهما زاد في إعجاز النظم القرآني (الحضري، 2007، صفحة 07)

والحقيقة التي لا مفر منها أن حروف العطف حملت مسؤولية لا يستهان بها إلى جانب الأجناس الأخرى والدليل على ذلك دورها الكبير في الكشف عن أسرار إعجاز النظم القرآني إذ لها فضل عما تؤديه من معاني في الجمل (جوزيف و جرجس، 1999، صفحة 293)

نبدأ حديثنا عن معاني حروف العطف من الواو لأن الواو أكثر شيوعا في القرآن الكريم ثم الفاء تليها ثم وبعدها بقية الحروف ولأن الواو لا تدل على أكثر من الاشتراك فقط بينما بقية الحروف فتفيد مع الاشتراك معنى آخر على حسب الحرف وعلى حسب السياق وفي هذا يقول الجرجاني: "واعلم أنه إنما يعرض الإشكال في الواو دون غيرها من حروف العطف وذلك لأن تلك تفيد مع الاشتراك معاني....." (الجرجاني، 2002، صفحة 240)

يرهن ابن الأنباري على أن الواو تقتضي الجمع دون الترتيب ويستشهد بالآية القرآنية في قوله تعالى: "وَإِذْ خُلُوا إِلَىٰ سُلَيْمَانَ وَسُلَيْمَانَ خُلُوا إِلَىٰ سُلَيْمَانَ" (سورة البقرة: 58) وقوله في موضع آخر: "وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا" (سورة الأعراف: 161).

فلو كانت الواو تقتضي الترتيب لما جاز أن يتقدم في إحدى الآيتين ما يتأخر في الأخرى (ابن الأنباري، 1995، الصفحات 267-268).

ففي قولنا مثلا: تشاجر أو اختصم أكرم وكرم لا مكان للترتيب في هذه العبارة، لأن هذا الفعل لا يمكن أن يقع إلا من اثنين ولا يمكن أن يختصم الشخص مع نفسه (المرادي، 1983، صفحة 160).

تعطف الواو اللاحق والسابق والمصاحب، وفي هذا يقول سيبويه "... يجوز أن تقول: مررت بزيد وعمر والمبدوء به في المرور عمر ويجوز أن يكون زيدا، ويجوز أن يكون المرور وقع عليهما في حالة واحدة فالواو يجمع هذه الأشياء على هذه المعاني....." (سيبويه، د ت، صفحة 437)

ومن أمثلة عطف المتأخر (اللاحق) قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ" (سورة الحديد: 26) ومن أمثلة عطف المتقدم (السابق) قوله تعالى: "وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ" (سورة آل عمران: 43)

ومن أمثلة عطف المصاحب قوله تعالى: "فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ" (سورة العنكبوت: 15).

إذا مذهب البصريين أن الواو للجمع بلا قيد لكنها عند الكوفيين للترتيب كقطرب والربعي والفراء وثعلب وابن هشام واستدلوا على ذلك بقوله تعالى "إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا" (سورة الجاثية: 24)

فلو كانت الحياة المقصودة هي حياة ما بعد الموت لكان هذا اعتراف من المشركين بيوم البعث والنشور وهذا ما يتنافى مع الحقيقة (ابن عقيل، 1995، صفحة 208)

والفاء من العوامل، لأنها تخص أحد القبيلين دون الآخر ولها مواضع ثلاثة: العطف والجواب والزيادة (الرماني، 1973، صفحة 43)

وذكر صاحب البرهان: للفاء أربعة معان هي: عاطفة، سببية، للجزاء، وزائدة، والعاطفة تفيد الترتيب والتعقيب بدون مهلة (الزركشي، 1972، صفحة 294)

وزعم الكوفيون أن الترتيب لا يلزم في الفاء واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسًا" (سورة الأعراف: 04)

فالهلاك أو الإهلاك واقع بعد البأس وهذا رأي الفراء - إمام الكوفيين - والذي يتضح من خلال كلامه أنه يدرك أن الأصل في الفاء الترتيب وإلا فما الحاجة لتلك التفسيرات والتأويلات التي خرج بها (الخضري، 2007، صفحة 26)

فالفاء إذا تشترك بين المعطوفين وتجعل الأول مبدوء به أي يتأخر فيها المعطوف على المعطوف عليه لكن يبقى متصلا به.

وقبل أن تنتقل من الحديث عن الفاء إلى الحديث عن ثم ثالث حروف العطف انتشارا في الذكر الحكيم لا بأس من إجراء موازنة بين الفاء وثم بوضعهما في كفتي الميزان الصوتي وسنجد حتما أن الكف المائلة والتي ثقلت بوزنها هي ثم لان الفاء لا تشكل إلا مقطع صوتي قصير واحدا وهذا ما يجعل نطقه يستغرق لحظة خاطفة من الزمن عكس ثم والتي تتكون من مقطعين: الأول متوسط مقفل "ثم" والثاني قصير "م" وهذا ما يجعلها تستغرق زمنا أطول من زمن الفاء والفاء تقابل الحركة الواحدة وثم تقابل الوتر المفروق في علم العروض وهذا ما جعل الفاء دالة على التعقيب وسرعة وتوالي الأحداث وثم دالة على التراخي والمهلة بين الأحداث (الخضري، 2007، الصفحات 6-7)

أما عن موقع الحرفين من الجهر والهمس والجانب الصوتي فان " الفاء وهي حرف مهموس يسمح بتسرب النفس في حين يحتبس النفس مع ثم المنتهية بحرفين مجهورين ليوحي بطول الانتظار وثقله على النفس تلك عبقرية اللغة في الحرفين.... أما إعجاز النظم في ضع هذين الحرفين موضعهما" (الخضري، 2007، صفحة 7)

وقد تأتي الفاء بمعنى ثم كقوله تعالى: "ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا" (سورة المؤمنین: 14) وقوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً" (سورة الحج: 63) فالفاء هنا بمعنى ثم لوجود المهلة بين المعطوفات.

ومن مواطن الإعجاز في النظم حين تطوي الفاء الأحداث وتقلص الزمن وتفجأ المتلقي بما لم يكن قد أعد نفسه لتوقعه أو تخطأ الحدث وتطيل زمن وقوعه لتحسب معه الأنفاس وتشتد وطأته على النفوس حين يقع العطف ب ثم (الخضري، 2007، صفحة 9)

والعطف بثم يقتضي تأخر المعطوف على المعطوف عليه لكن بانفصاله عنه حتى لا يختلط الأمر بينها وبين الفاء (ابن عقيل، 1995، صفحة 209)

ومثال ثم قوله تعالى: " وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ " (سورة فاطر: 11)، إذن ثم حرف عطف يفيد الترتيب أي أن الثاني بعد الأول والتراخي وهو المهلة بين الأحداث (ابن هشام الأنصاري، 1989، صفحة 267).
مما سبق اتضح لنا أن الفاء وثم امتازتا عن الواو بالترتيب وأن الفاء امتازت عن الواو بالتعقيب وأن ثم امتازت عن الواو بالمهلة وعن الفاء بالتراخي.

والعطف بالواو لتفصيل المسند إليه مع الاختصار والعطف بالفاء وثم يفيد تفصيل المسند مع الاختصار (القزويني، 1996، صفحة 83)

ومن الترتيب والتراخي في القرآن الكريم قوله تعالى: "لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى" (سورة طه: 82) وقالوا أن العطف بثم قد يأتي لترتيب الأخبار لا لترتيب الحكم أو المخبر عنه (الزركشي، 1972، صفحة 266) ومثال ذلك قوله تعالى: "وَاسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوُّوا إِلَيْهِ" (سورة هود: 90)

فالعطف بثم هنا لترتيب الأخبار وليس لترتيب الأحداث كما هي في الوجود وهذا يعني أن مرتبة الإخبار الثاني بعد مرتبة الأول والزخشي يجعله تدرجا وارتقاء إلى ما هو أشد وأعظم فهو ترتيب رتي يكون المعطوف فيه أعلى درجة من المعطوف عليه (الخضري، 2007، الصفحات 207-208).

وكثيرة هي الآيات التي حوت العطف بثم وليس المقصود الترتيب الزمني (التراخي) وإنما المقصود التباين في الصفة أي عظمة المخبر عنه فكلما تقدمنا في جملة العطف وجدنا أن المعطوف أعظم وأعلى منزلة من المعطوف عليه وهكذا.

ومن حروف العطف حتى، وأم، واو، وأما، ولكن، ولا، وبل.

إن عدد حروف العطف على اختلاف معانيها من حرف لآخر يقتضي التنوع في الفائدة المرجوة من العطف فهذه الحروف على جملتها مثلما تحتاج إلى معطوف تحتاج إلى معطوف عليه وهي وإن وجدناها عطفت جملة على جملة نجدها تعطف مفردا على مفرد وهي مثلما عطفت اسما على اسم نجدها تعطف فعلا على فعل وهي تعطف المضممر على المضممر مثلما تعطف الظاهر على الظاهر وما هذا التنوع في الفوائد إلى ضرورة يقتضيها التنوع في العدد والتنوع في المعاني وحتى التنوع في المعطوف من جهة والمعطوف عليه من جهة أخرى.

إن صيغة العطف في النص القرآني أسلوب من أساليب البلاغ عن حقيقة الإسلام، وبيان أهدافه في تحقيق سعادة الإنسان بلسان عربي مبين.

دور حروف العطف في البرهان على إعجاز تراكيب القرآن العطف من الوصف إلى الكشف د/ طيبي فتيحة

سبق وتحدثنا عن علماء البلاغة قديما الذين اهتموا بعطف الجمل دون المفردات إذ لم ينظروا إلى الجمل على أنها "أحجار صماء تراصت لتبني هيكلًا عامًا... إنما هو باحث عن سر تكوينها وعن أثر وجودها وعن فاعليتها وعما يمكن أن تؤديه بوجودها معطوفة أو مستأنفة، موصولة أو مفصولة" (سلطان، 1988، صفحة 189)

وهذا هو أساس البلاغة -الفصل والوصل- الذي توقف عنده البلاغيون طويلا وجعلوه حدا للبلاغة.

استغرقت هذه البلاغة الجرجانية جهود القدماء وسيطرت على التفكير البلاغي العربي قرابة العشرة قرون وهذا ما جمد البلاغة مع عبد القاهر ومن جاء بعده من شراح نظريته كالسكاكي والقزويني والسبكي لأنه ركز ومن جاء بعده على هذه الأسس (مواضع الفصل والوصل) ولم يتجاوزها إلى ما هو أهم إلى جوانب أخرى بلاغية تخص العطف في الجمل كما تخصصه في المفردات فمصطلح الفصل والوصل هو الأساس الذي تقوم عليه العبارة في الكلام البليغ ولن تستقيم هذه العبارة إلا بمعرفة العلاقات النحوية بين المفردات المتعاطفة وهنا تظهر قيمة النحو العربي في سلامة وبلاغة العبارة العربية فالعالم بالفصل والوصل لابد أن يحيط علما بعلوم العربية الأخرى حتى لا يتيه عن الهدف وحتى يدرك قيمة العطف بين المفردات التي تضاهي قيمته في الجمل وحتى يصوب ما ذهبت إليه البلاغة الجرجانية في نظريتها الشهيرة التي اشتغلت ببلاغة التركيب (الجمل) وأهملت جانبا مهما من بلاغة العطف وهو عطف المفردات.

وإذا ما تعلق الأمر بالنحاة فإنه يمكن القول أن انشغال النحاة بفكرة الإتيان الإعرابي عن مضمون الانعطاف الذي يمثل أساس ومحور باب العطف، أثر كثيرا في التحليل البلاغي والجمالي والفني للعبارة العربية.

والحديث عن النحو يقتضي الحديث عن الخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين، فمن القضايا التي تخص أسلوب العطف والتي أثارت جدلا طويلا بين المدرستين المخالفة في الإعراب بين المعطوف والمعطوف عليه، كذلك الجر على الجوار والعطف على الضمير المجرور والعطف على الضمير المرفوع المتصل والعطف على المعنى (عيسى شحاتة، 2001، الصفحات 229-253).

كذلك من القضايا التي شغلت هؤلاء وأولئك قضايا الترتيب والتعقيب في بعض معاني حروف العطف (عيسى شحاتة، 2001، صفحة 354)

ومهما تحدثنا عن أساليب العطف في الذكر الحكيم، فلن نفيا حقها ولا يسعنا المقام هاهنا لذكر كل النماذج العطفية الموجودة في القرآن الكريم خاصة تلك التي اختلف فيها البلاغيون وأهل التفسير.

وسنحاول هنا أن نعطي صورة واضحة عن أساليب العطف في القرآن الكريم على سبيل التمثيل لا الحصر بانتقاء أروع ما جاء في كتب التفسير عن هذه الأساليب البليغة.

قال المرتضى في أحد مجالس التأويل: "إن سأل سائل عن قوله تعالى: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً" (سورة البقرة: 74) فقال: ما معنى أو ها هنا؟ وظاهرها يفيد الشك الذي لا يجوز عليه تعالى. الجواب قلنا: في ذلك وجوه" (الشريف المرتضى، 1967، صفحة 54) والقسوة: "الصلابة والشدّة واليبس" (القرطبي، 2001، صفحة 115) وقد اختلف العلماء في المراد بالقلوب، فهي قلوب جميع بني إسرائيل، أم قلوب ورثة القتل.

وقد قابل الله سبحانه وتعالى الجمع بالجمع فكما هي الحجارة متفاوتة في الصلابة، تفاوتت القلوب أيضا في القساوة (أبو حيان الأندلسي، 2001، صفحة 428).

وذكر المرتضى خمسة وجوه ل: أو: فقد تكون أو للإباحة وقد تكون للتفصيل والتميز، وقد تكون على سبيل الإيهام فيما يرجع إلى المخاطب، لأن الله يعلم ذلك ولا يشك فيه أبدا، وقد تكون بمعنى بل وقد تكون بمعنى الواو (ابن كثير الدمشقي، 2002، صفحة 227).

وقد اجمع علماء العرب على استحالة أن تكون أو هنا للشك (الشريف المرتضى، 1967، الصفحات 54 - 57).

بينما أشار أبو حيان للشك وكذلك القرطبي: "بل هي على بابها من الشك ومعناها عندهم أيها المخاطبون وفي نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتكم أهي كالحجارة أو أشد من الحجارة؟" (القرطبي، 2001، الصفحات 54-57) وأحسن معنى ل أو هنا هو التنويع والتفصيل والتميز وهو ما نجده عند كل المفسرين، وهو أن هناك فرقتين فرقة قلوبهم كالحجر وفرقة أخرى قلوبهم أشد من الحجر ومعنى هذا أن الفرقة الثانية أشركت الأولى في القسوة ثم زادت عنها في هذه الصفة (أبو حيان الأندلسي، 2001، صفحة 428)

ننتقل الآن إلى قوله تعالى: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (سورة هود: 44)

فالله سبحانه وتعالى يصور ما حدث بعد الطوفان تصويرا حسيا كما يصور لنا نجاة نوح عليه السلام ومن معه وهم على ظهر سفينته فتأمل روعة الوصل بين نداء الأرض وأمرها وبين نداء السماء وأمرها، وما إن تتلقيان هذا الأمر حتى تنفذه مباشرة، فتعود الطبيعة إلى هدوئها بعد أن تطهرت الأرض من رجس المشركين.

فعلا شأن هذا القرآن عجيب ندرك إعجازه ولا نستطيع أن نصفه ولا سبيل إلى معرفة طريقه، قال الله تعالى: "الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" (سورة الرحمن: 1-4)

يرى الزركشي أن حذف الواو في قوله تعالى " عَلَّمَهُ الْبَيَانَ " نكتة علمية وأن الله وازن بين خلق الإنسان وبين تعليمه البيان فكانا في مرتبة واحدة (الزركشي، 1972، صفحة 250)

حتى وإن ثبتت الواو فالمعنى لا يتغير لأنها تعطف سابقا ومصاحبا ولاحقا وأنها لا تفيد غير الاشتراك ولماذا لا يكون العاطف غير الواو كنتم مثلا..... وما السر في تقديم "علم القرآن" على "خلق الإنسان" والثانية أولا وليس بينهما عاطف فما السر هنا من ترك العاطف بين هذه الجمل الثلاثة، وما السر في توسط جملة الخلق بين جملي التعليم؟ فما بالك بتفسير القرآن الكريم كله.

وقد أورد الشرقاوي مثالين رائعين من القرآن الكريم الأول قوله تعالى: " يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " (سورة عبس: 34-37) والثاني قوله تعالى: " يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجُرُ لَوْ يُفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئذٍ بَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ " (سورة المعارج: 11-14)

دور حروف العطف في البرهان على إعجاز تراكيب القرآن العطف من الوصف إلى الكشف د/ طيبي فتيحة

ذكر الله سبحانه وتعالى خمسة أنواع من القرابة في الآيات الأولى هي: قرابة الأخ، قرابة الأب، قرابة الأم، قرابة الصاحبة، قرابة الأبناء، ففي هذه الآيات ترتيب عجيب - رغم أن الواو لا تفيد الترتيب- بدأ بالمهم فالأهم في حياة المرء وكأن المنحنى يرتفع شيئاً فشيئاً ليصل إلى الذروة ويتوقف في ذروة الحب والقرابة والمتمثلة في علاقة المرء بأبنائه تليها قرابته بزوجته، فأمه، فأبيه، فأخيه (الشرقاوي، د ت، صفحة 104).

ونجده سبحانه وتعالى يذكر ثلاثة أنواع للقرابة، في الآيات الأخرى هي: الأبناء والزوجة والإخوة، لكن ما السر في هذا الترتيب العكسي، فهذا المجرم يطلب النجاة، ويريد أن يفدي نفسه بأعز شيء عنده وهو الأبناء ويود أن يفدي بهؤلاء جميعاً مقابل النجاة فبدأ بالأهم فالأهم وكأنه يقول أفدي في سبيل نجاتي بفصيلتي بل بأخي، بل بصاحبتني، ولا بل بأبنائي وهم اعز ما أملك.

وحول الآيتين يقول الشرقاوي: "إن بعض المفسرين تنبه أحياناً إلى دقائق عالية من بلاغة العطف القرآني للمفردات" (الشرقاوي، د ت، صفحة 104).

وليس من الضروري أن يتناول الدارس كل القرآن الكريم حتى يقال عنه أنه مفسر، فكل من تناول آية أو بضع آيات بالدراسة مع صدق النية في خدمة هذا النص المجيد هو في الواقع مفسر ومن أوائل هؤلاء الدارسين سيبويه والفراء وأبو عبيدة وابن قتيبة والمبرد والجاحظ وغيرهم.

ورغم أن المفسرين في أغلب الأحيان اهتموا بالتشريك في الحكم والنحاة اهتموا بالتشريك اللفظي (الإتباع الإعرابي) إلا أنهم جميعاً أسهموا فعلاً في تأصيل علم البلاغة بمختلف فنونه من خلال آيات الذكر الحكيم (دوب، 1997، الصفحات 5-6)

وكل المناهج التي قدمها علماء البلاغة قديماً وحديثاً وتخص مباحث الفصل والوصل في المفردات أو في الجمل مهما بلغت من إحكام صناعة وتمكن قد تتعرض لما يخالف هذه المناهج التي رسموها في كتبهم البلاغية لا شيء إلا لأن القرآن الكريم فاض بنظمه على الدراسات البلاغية فلم تستطع الإمام بهذا النظم الذي يمثل سرا من أسرار الذكر الحكيم الذي يتسع فيه القول لما ضاق به فكر رجال البلاغة فنزعته إلى التعميم وشعارهم "أن ننحو نحو كذا" أوهماهم بأن الكلام مهما كان بليغاً سيوافق في آخر المطاف أحد هذه الأنماط التي وضعوها لذا أشكل عليهم الأمر مع كثير من النصوص القرآنية التي حاولوا هي الأخرى إخضاعها باللجوء إلى التقدير أو الحذف أو الزيادة كما أشكل عليهم الأمر في كثير من قضايا الترتيب والتعقيب وحتى المهلة في العديد من الآيات إذ الحروف تتعاور فيما بينها فتبادل الأدوار والمعاني، وهذا ما لم يجدوا له تفسيراً إلا أن هذا القرآن معجز بحروفه وبكلماته وبجمله.

قال تعالى: "قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" (سورة الإسراء: 88).

فكان القرآن الكريم ولا يزال وسوف يبقى منفرداً بصفات انقطع نظيرها في كلام البلغاء وهذا أقوى برهان على دوام استمرار إعجاز القرآن.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

دور حروف العطف في البرهان على إعجاز تراكيب القرآن العطف من الوصف إلى الكشف
د/ طيبي فتيحة

- أبو البركات عبد الرحمان بن مُحمَّد ابن الأنباري. (1995). *أسرار العربية*. (تح: فخر صالح قداره) بيروت: دار الجيل.
- أبو الحسن علي بن سليمان بن أسعد حيدرة اليميني. (2004). *كشف المشكل في النحو*. (تع: يحي مراد) بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى. (1973). *معاني الحروف*. (تح: عبد الفتاح، إسماعيل شليبي) القاهرة: دار نهضة.
- أبو الحسن مُحمَّد بن الحسن رضي الدين الاستبدادي. (1998). *شرح كافية ابن الحاجب* (المجلد ج 2). (تح: إميل بديع يعقوب) بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي. (2002). *تفسير القرآن العظيم*. بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر.
- أبو القاسم عبد الرحمان ابن إسحاق الزجاجي. (1996). *الجمال في النحو*. (تح: علي توفيق الحمد) بيروت: مؤسسة الرسالة.
- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه. (د.ت). *الكتاب* (المجلد ج 1). (تح: عبد السلام هارون) بيروت: دار الجيل.
- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن مُحمَّد الجرجاني. (2002). *دلائل الإعجاز في علم المعاني*. (قدم له: ياسين الأيوبي) بيروت: المكتبة العصرية.
- أبو عبد الله مُحمَّد بن أحمد القرطبي. (2001). *مختصر تفسير القرطبي، اختصره الشيخ: عرفان حسونة* (المجلد م 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو مُحمَّد عبد الله، جمال الدين ابن هشام الأنصاري. (1989). *أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك* (المجلد ج 3). (تح: ح. الفاخوري) بيروت: دار الجيل.
- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري. (1979). *الصحاح*. (تح: أحمد عبد الغفور عطار) بيروت: دار العلم للملايين.
- إلياس جوزيف، و ناصيف جرجس. (1999). *الوجيز في الصرف والنحو والإعراب*. بيروت: دار العلم للملايين.
- بدر الدين الحسن بن قاسم المرادي. (1983). *الجنى الداني في حروف المعاني*. (تح: فخر الدين قباوة، و مُحمَّد نديم فاضل) بيروت: دار الأفاق الجديدة.
- بدر الدين مُحمَّد بن عبد الله الزركشي. (1972). *البرهان في علوم القرآن* (المجلد ج 4). (تح: مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم) بيروت: المكتبة العصرية.
- بهاء الدين عبد الله ابن عقيل. (1995). *شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك* (المجلد ج 2). (تح: مُحمَّد محي الدين عبد الحميد) بيروت.

دور حروف العطف في البرهان على إعجاز تراكيب القرآن العطف من الوصف إلى الكشف
د/ طيبي فتيحة

جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني. (1996). الإيضاح في علوم البلاغة. (تح: عبد القادر حسين) مكتبة الآداب.

رابع دوب. (1997). البلاغة عند المفسرين. القاهرة: دار الفجر.

عفت الشرقاوي. (د ت). بلاغة العطف في القرآن الكريم. بيروت: دار النهضة العربية.

علي بن الحسين الشريف المرتضى. (1967). أمالي المرتضى (المجلد م 2). (تح: محمد أبو الفضل إبراهيم) بيروت: دار الكتاب العربي.

عيسى عيسى شحاتة. (2001). الدراسات اللغوية في القرآن الكريم. القاهرة: دار قباء.

محمد الأمين الخضري. (2007). من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم. القاهرة: مكتبة وهبة.

محمد بن يوسف بن علي أبو حيان الأندلسي. (2001). تفسير البحر المحيط. (تح: عادل أحمد عبد الموجود، و الشيخ علي محمد معوض) بيروت: دار الكتب العلمية.

منير سلطان. (1988). بلاغة الكلمة والجملة والجمل. الإسكندرية: منشأة المعارف.